هل الدين لازم للبشر ؟

ليس علينا من حرج فى أن نختصر التعريف اللغوى لكلمة الدين . وأن لانسهب فى ذلك كثيراً لأن قصدنا من هذا الفصل واضح جلى وهو الدراسة الواقعية والنفسية لمدى كلمة الدين وما تهدف اليه وتبغى تحقيقه

فالدين بمعناه اللغوى . وبكسر الدال المشددة وضم النون هو الطاعة والانقياد فيقال رجل متدين يعنى مستسلم منقاد مطيع

وعلى كل حال فان أول مايعن للباحث فى دراسة الدين وماهيته ومدلوله ومدى احتياج البشر اليه أو استغنائهم عنه والدور الذى يؤديه للإنسان فى حياته والتأثير الذى يحدثه له فى مجريات أموره إن كان لذلك كله نصيب كما سيظهر بعد

أول مايعن للباحث : هو أن مايقابل الدين من مدلولات وتفسيرات أنه جملة معتقدات لأشياء سماوية وغيبية . ظاهرة وخفية يدركها الانسان بعقله وبصيرته وقلبه أم يعجز عن إدراكها واحساسها وتصورها والالمام بها والحكم عليها فالعقدة فى الدين إذاً هى العقيدة لآراء ومبادىء وصفات وأحكام يطمئن الانسان إليها ويعمل بها ولها يخطو خطواته على ضوئها ، ويستضىء بهديها يكون احكامه وتصوره للاشياء والناس والصفات من خلال منظارها

وإذا كنا نحن سنقيم دراستنا ونبرز دلائلنا ونبسط تشريحنا لحقيقة الدين وماهيته ، والدور الذى يلعبه فى حياة الانسان من الوجهة العقلية والمنطقية فقط

واذا كنا قد علمنا أن مايقابل الدين هو العقيدة : أو أن العقيدة هى الأصل في الدين . أو هي البذرة التى تتفرع منها مبادئه والتي يقيم دعائمه على أصولها

إذا كنا قد علمنا ذلك كله فاننا نحب أن نوجه الى أنفسنا وإلى قرائنا هذين السؤالين وهما أولا : هل العقائد التى اصطنعها الانسان البدائى لنفسه كانت باختياره وبوحى من كوامنه النفسية أم أنه ارغم عليها ارغاما ، واكره عليها اكراها ؟ ، ثانيا : هل يتأتى لانسان عاقل متحضر أن يدب على ظهر الأرض وأن يعمر فى دنياه طويلا دون أن تكون له عقيدة أيا كانت هـــذه العقيدة ؟ ، للإجابة عن هذين السؤالين يحتم علينا الواجب أن نستعرض فى اختصار ولمحات سريعة تاريخ الانسان واطواره المختلفة حتى الآن ولا نحب أن نستهدف لبحوث طويله نعتقد أنها لاتهمنا فى بحثنا هذا بل نعتقد فوق ذلك أنها ليست على أهمية كبيرة أو ضئيلة للإنسانية بعد أن قطعت هذه المرحلة الطويلة فى الارتفاع والتطور والرقى وتكوين هذا الوعى الانسانى العام ثم لا نحب أن نقتحم هذه المنطقة الجدلية التى اختلف فيها العلماء كثيراً وهى : هل المادة قديمة أم الروح وبالتالى هل الأصل فى الانسان أنه حيوان مادى نشأ من المادة أم أنه روح خلقها الله قبل أن يستوى مادة

وإن كنا نحن سنتجنب الخوض فى ذلك كثيرا فاننا سنتجنبه لا لشىء الا شفقة منا فى اطالة هذا الفصل من الكتاب وفى وضع كلام فى غير موضعه ولايماننا بأنه من الخير والفائدة للانسانية أن تفسر حقيقتها وحقيقة الوجود كما هو وكما أدركته ولمسته بدل أن تنفق وقتها وتقيس مقاييسها فى شىء علمته بالسماع وعرفته بالخيال وتتبعا لمنهاجنا الذى رسمناه لأنفسنا فى بحثنا فى هذا الكتاب ولهذا الموضوع بالذات وهو أننا لن نتعرض لشىء الا لما هو واقع تحت نظرنا مدرك لعقولنا مؤثر فى انسانيتنا يحتاج اليه النوع البشرى فى تكييف حياته وفى رسم ماينتظره من درجات التقدم والسمو والارتفاع غير أن ذلك كله لن يمنعنا من أن نمس هذا الموضوع مساخفيفاً ونطرقه طرقا متواضعاً

وإذا كان دارون قد أقام دعائم مذهبه الذى آمن به كثير من العلماء والمفكرين على أن المادة قديمة وعلى أن أصل الانسان تدرج من حيوان قذر منحط فإنه قد وجد من العلماء فى هذا العصر من ينكر قدم المادة ومن يقرر

فى غير تحفظ بدلائل ثابتة مادية أن الروح هى الاصل فى القدم بدليل تفتت الذرة ، وبدليل ماأثبته علم التنويم المغناطيسى من تأثر الجسم بالروح ، وانفعاله بها ، وخضوعه لها

وإذا كنا نحن سنخالف دارون ومن لف لفه من الماديين الطبيعيين فيما ذهبوا اليه من أن أصل الإنسان وعنصره تدرج من حيوان بهيمى منحط قذر فإننا نخالفهم لماسبق من دلائل على قدم الروح ومن تأثر الانسان البدائى بها من طريق اللاشعور ، ومن أن الانسان الأول كان حقيقة أشبه بالحيوان فى طبعه وغرائزه وذلك بحكم اصطباغه بطبيعة الارض المادية التى نشأ فيها ودرج عليها ولكن الروح كانت من عناصر تكوينه وخلقته مستترة فى كوامن نفسه بحكم طغيان الغرائز المادية عليها ، وقوتها منها

ومع ذلك فإن أول مايسترعينا من بحث أطوار الانسان المختلفة حتى الآن أن نقف قليلا عند هذا الطور الذى حقق الانسان فيه لنفسه ثلاثة أشياء كانت بالنسبة له على أعظم جانب من الخطورة وهى النطق ، ومعرفه النار واستغلال الأحجار فى صنع أوانيه وما يلزمه من معدات وأشياء

من هذا الطور نستطيع حقيقة أن نتبين فى وضوح ويقين حقيقة الجنس البشرى لأنه قد أثبت فيه لنفسه ارتفاع عنصره وامتياز خلقته

فى هـــذا الطور ننظر فنجد العقيدة قد ابتدأت تلعب دورها الخطير فى حياة الانسان

فى هـــذا الوقت ننظر فنجد الروح الكامنة فى نفس الانسان قد هتكت النقاب عن نفسها وقد أخذت تظهر شيئا فشيئاً مثبتة لوجودها عاملة على اظهار شخصيتها فلقد استرعى نظر الانسان الأول الذى كان يسكن الغابات ويعيش فى الكهوف فكرة الموت بعد أن كان يسمى ذلك أولا النوم الطويل ، وبعد أن كان لايعرف شيئا عن الموت البتة وذلك بحكم الطبيعة وبحكم ظروفه السابقة التى كانت تحيط به والتى كانت فيها الغرائز الوحشية الفطرية هى المسيطرة عليه فكان الموت يأتيه نتيجة لافتراسه من الوحوش أو لتصارعه مع آخرين وكان

كل مايحدث له أو يصدر عنه أو يتمثل فى خاطره يأتى نتيجة لأعماله الفطرية الا إدراكية وللقوة الجبرية الغريزية فيه . ولكنه بعد أن أصبح اجتماعياً شيئاً ما بحكم اصطناعه للكلام والنار والآنية أخذ يحس كأن مؤثراً آخر يؤثر فى حياته غير غرائزه الجسدية بدليل ما كان يتراءى له فى النوم من أفعال وأعمال وحوادث تتمثل أمام خاطره مثل تصارعه مع آخرين أو اقدام وحش من الوحوش على افتراسه فيقوم من نومه فزعاً مضطرباً فلا يجد شيئا حدث له البتة ومن هنا آمن بالروح وأخذت عقيدته فيها تتشكل بأشكال مختلفة مع تطوره وقوة ادراكه

والمهم هو أن العقيدة قد نشأت فى نفسه فى أول فرصة أتيحت له عندما استطاع أن يتحلل من غرائز الحيوان السفلى وأن يرتفع الى منزلة الانسان القادر على الشعور والادراك

ثم أخذت العقيدة عنده تتطور مع تطوره وتتشكل فيه بأشكال مختلفة حسب ما كانت توحيه ظروفه ويتمخض عنه خياله

أصبحت عقيدته فى هذا الوقت ذا أثر فعال فى رسم مجرى حياته وفى تكوين خياله وتصوره للناس والأشياء والكائنات

ولو رجعنا نحن إلى علم (الميثولجيا) لنبحث فى طواياه ونفتش فى جوانبه عن أصل العقيدة التى اصطنعها الانسان الأول لنفسه لوجدناها ساذجة بسيطة مما كان يتفق وعقله الضيق وادراكه المحدود فلقد كان يعتقد الألوهية فى آبائه واجداده وذلك لايمانه بأرواحهم التى لم تفن بفناء أجسادهم وانما هى باقية خالدة غير قابلة للفناء . . ومن هنا كان يقدسها ويقدم لها القرابين ومن هنا أيضا كانت عقيدته فيها وإيمانه بها ذا أثر كبير فى كل مايقدم عليه من عمل أو يحدث له من حوادث أو يرجو من أشياء

ثم تطورت به العقيدة على أن يكون الهه هو رب قبيلته وذلك لما بلغه من مرحلة كبيرة فى الكثرة والتناسل ومعرفة وسائل التنافس والاستغلال فكانت كل قبيلة لها إلهها القوى الشجاع القادر على كل شىء والذى بيده الأمر والنهى

والخير والشر والذى تضفى عليه من السمات والصفات ماتتفاخر وتتعالى به على قريناتها من القبائل الأخرى

والدارس الذى يتحرى الدقة فى بحثه لايسعه الا أن يقف متأملا فى هذا الطور من اطوار الانسان . وان لايجزم له بعقيدة معينة كان يؤمن بها أوعبادة خاصة كان يصطنعها لأنه هنا فى هذا الطور ـ طور الكثرة والتناسل والتفرع والتشعب ـ لايمكن أن يعين الباحث ديانة واحدة . أوعبادة خاصة كانت تفرض سلطانها عليه ، وكان يستظل بها أفراد الانسانية جميعاً وذلك لوجود ديانات كثيرة لاسبيل الى حصرها ولا محل للجزم بأن واحدة منها كان يستظل بها أبناء البشر جميعاً وعلماء مقارنة الأديان يعترفون بتطور الأديان واتفاقها فى فى الصفة والكثرة والتشعب ثم الاختلاف حسب ما كان يعتور البشرية من ألوان الحياة التى أتت نتيجة لكثرتها وتشعبها واختلافها

واذا كانت الظاهرة التى يستخرجها الباحث فى الديانات أنها لم تتفق فى شىء قدر اتفاقها فى الدعوة إلى الروحانية الا أن ذلك لايكون دليلا على أنها كانت قريبة الصلة والتفاهم بعضها من البعض الآخر وعلى أنهـــا خالية من العصبية والتعصب نزيهة من الاختلاف والتخاصم والتنافر والبعد والشقاق

واصدق شىء يمكن أن نصور به هذا الطور من أطوار الديانات أنها كانت فى خصائصها وذاتيتها فقيرة قاصرة متفقة مع المقدار الضئيل الذى استوعبته الانسانية من الوعى والادراك متخاصمة متنافرة متعصبة بقدر ما كان يسود الانسانية فى ذلك الوقت من التخاصم والتنافر والتعصب

ومن هنا نستطيع أن ندرك العلة فى تلون الديانات بألوان معتنقيها وصبغتها بالبيئة التى كانوا يعيشون فيها وتعددها وتنافرها وذلك لأن عقول البشرية لم تكن قدتهيأت بعد لقبول مبدأ التوحيد الصحيح ولرضم دعوة الإله الواحد الخلاق الذى يجب أن يدين له البشر جميعا بالطاعة والانقياد

يقول الاستاذ العقاد فى كتابه الله صفحة ٢٥

فالتطور فى الديانات محقق لاشك فيه ولكنه لم يكن على سلم واحد

متعاقب الدرجات بل كان على سلالم مختلفة تصعد من ناحية وتهبط من أخرى وقد أوجب هذا الاختلاف أن الشعب على حدته لا يطرد فى التقدم عقيدة بعد عقيدة ، ولا تزال له عقائد شتى قلما يسرى عليها حكم واحد من عوامل التطور والارتقاء . وأن الديانات نشأت فى شعوب كثيرة لا فى شعب واحد فما تقدم هنا لم يلزم أن يتقـــدم هناك ، وما استعاره شعب من شعب غريب عنه قد يكون أرفع من طبقته التى ارتقى اليها من طبقات الحضارة فيتفق له فى الوقت الواحد ضربان من العبادة أحدهما سابق والآخر متخلف ويتقهقر السابق أحيانا قبل أن يتقدم المتخلف اليه وربما سمت قبيلة متخلفة ربا من أربابهم باسم خالق الأشياء جميعا ولم يكن ذلك دليلا على ارتفاع فى فهم الربوبيه بل على ضيق فى حصر نطاق المخلوقات وقصرها على الحيز المحدود الذى تعيش فيه القبيلة)

ويقول ايضا فى كتابه صفحة ٣٠

فديانة الشمس كانت الخطوة السابقة لخطوة التوحيد الصحيح لأنها أكبر ماتقع عليه العين . وتعلل به الخليقة والحياة فإذا دخلت هى أيضا فى عـــداد المعلولات فقد أصبح الكون كله فى حاجة الى خالق موجود للأرض والسماء والكواكب والأقمار . وينطبق هـــذا الترتيب تمام الانطباق على فحوى قصة ابراهيم فى القرآن الكريم)

ثم يقول فى صفحة ٣٢ — ٣٣

« وجملة القول أن أطوار العقيدة الالهية تشعبت بين الناس فلم تطرد على مراحل متشابهة فى جميع الأمم وفى جميع الأزمان

ولكننا اذا أحطنا بوجهتها العظمى وجدنا أن عقيدة الأرواح لم تفارق أطوارها الأولى وأن عبادة الاسلاف امتزجت بعقيدة الأرواح ثم اتسعت نظرة الإنسان الى دنياه حتى التمس لها علة فى السماء فكانت الشمس هى أكبر ماراه وتوجه اليه بالعبادة ثم أصبحت الشمس رمزاً للخالق حين تجاوزها الإنسان بنظره الى ماهو أعظم منها وأعلى فهى القنطرة الأخيرة بين العدوتين عدوة التعديد وعدوة التحديد ولم يبق بعد اعتبار الشمس رمزاً للقوة الكونية

إلا قبول التوحيد الصحيح فتعلله الانسان من الديانات الكتابية شيئاً فشيئاً حتى بلغ بالقوة الالهية نهاية التنزيل .

ونحن وإن كنا نخالف الاستاذ العقاد فى رأيه من أن عبادة الشمس هى (القنطرة بين العدوتين عدوة التعديد وعدوة التحديد) وهى الطريق الأخير الذى بلغه الانسان لقبوله بعد ذلك مبدأ التوحيد

اذا كنا نخالفه فى ذلك فنحن نخالفه لما سبق أن قررناه فيما تقدم وفيما قرره هو أيضا

وهو ان الديانات لم تسر على خط واحد منظم منسق وانما كانت تعتمل فيها عوامل الصعود والهبوط . والتقدم والانحطاط التى كانت تعتور البشر فى ذلك الحين . ولأن الأمم التى كونت لنفسها حضارات وأثرت فى تاريخ البشرية كانت تؤمن بالاصنام وبتعدد الآلهة مع أنها تختلف عن الامم التى تعبد الكواكب وتؤله الشمس فى أشياء كثيرة غاية فى الخطورة وهى أنها لم تكن متأخرة مثلها ولم تكن فقيرة فى الوعى والادراك مثل ما كان عليه عبدة الشمس والكواكب

وإن الآية القرآنية التى أشار اليها الاستاذ العقاد فى كتابه وهى من سورة الانعام فى قوله تعالى (وكذلك نرى ابراهيم ملكوت السموات والأرض وليكون من الموقنين فلما جن عليه الليل رأى كوكبا قال هذا ربى فلما أفل قال لا أحب الآفلين . فلما رأى القمر بازغاً قال هذا ربى فلما أفل قال لئن لم يهدنى ربى لأكونن من القوم الضالين . فلما رأى الشمس بازغة قال هذا ربى هذا أكبر فلما أفلت قال ياقوم إنى برىء مما تشركون . إنى وجهت وجهى للذى فطر السموات والأرض حنيفاً وما أنا من المشركين)

هذه الآية لم تكن تعن أن تؤرخ تطور العقيدة كما فهم الاستاذ العقاد ذلك وإنما كانت فى الحقيقة تدعو الانسان الى أن يتدبر فى معرفة الله بعقله وفؤاده وبصيرته ولا حرج عليه فى ذلك ان اخطأ ثم اهتدى الى الحق والصواب وهنا غاية المرونة والتسامح من قبل الله كانت هذه الآية تقرر ذلك ثم تقرر قدرة الله فى عظمة وروعة تصور وهو أن هذه الشمس فى مقدرتها الكونية لأنها

أعظم قوة كونية يمكن أن يراها الانسان : هـــذه الشمس الضخمة الكبيرة لاتخلو من العجز والقصور والافول بخلاف قدرة الله القوية الجبارة التي لا يعتورها عجز ولا نقصان ولا ضعف ولا أفول ويوافقنا على رأينا هـــذا الاستاذ الامام محمد عبده قال رحمه الله فى تفسير المنار الجزء السابع

« ان الله تعالى انزل القرآن هدى وموعظة وجعل قصص الرسل فيه عبرة وتذكرة لا تاريخ شعوب ومدائن ولا تحقيق وقائع ومواقع

ثم جاء فى الجزء الثانى من تفسير المنار أيضا

« فإن قيل إن التاريخ من العلوم التى يسهل على البشر تدوينها والاستغناء بهـــا عن الوحى فلماذا كثر سرد الاخبار التاريخية فى القرآن وكانت فى التوراة أكثر ؟

والجواب ليس فى القرآن شىء من التاريخ من حيث هو قصص وأخبار للأمم أو البلاد لمعرفة احوالها ، وانما هى الآيات والعبر تجلت فى سياق الوقائع بين الرسل وأقوامهم لبيان سنن الله تعالى فيهم انذارا للكافرين بما جاء به محمد صلى الله عليه وسلم وتثبيتا لقلبه وقلوب المؤمنين به)

وجملة مانود أن نقوله ونقرره بشأن تطور العقيدة أنها كانت بصيرة ناضجة بقدر ما استوعبه الانسان من بصيرة وما تأتى له من نضج ، وأنها كانت متطورة واعية مع تطور الانسانية وما اكتسبته من وعى وأن الديانات الكتابية لم تنزل عليها الا بعد أن توفر لها من وسائل التكافىء والاستعداد ما تستطيع أن تهضم به ماتدعوها اليه من عبادة الإله الواحد الأحد الذى سيجازى المحسن ويكافئه على ماقدمت يداه من خير وينتقم من المذنب على ما ارتكبه من شرور وآثام

من هذا العرض السريع الذى نعتقد أننا لم نسهب فيه كثيرا لاننا لسنا فى حاجة إلى هذا الاسهاب فى دراستنا هذه يظهر لنا كيف وجدت العقيدة فى نفس الانسان الاول ، وكيف أنه هو الذى اكتشفها بنفسه واصطنعها باختياره ولم يرغم عليها ارغاما أو يساق اليها سوقا وهذا هو جوابنا على السؤال الأول

أما جوابنا على السؤال الثانى وهو هل من الممكن لإنسان متحضر أن يعيش عيشته المثالية ، وأن يسعى فى الحياة يأخذ من الناس ويعطيهم يتطامن معهم فى شيء أو يختلف عنهم فيه هل يتأتى لهذا الانسان أن يعيش دون أن تكون له عقيدة أيا كانت هذه العقيدة .

أما أنا فإن جوابى على ذلك أنه ليس من الممكن اطلاقا وأن هذا الانسان لم يوجد بعد وأغلب الظن أنه لن يوجد أبدا بدليل ما قررناه فى السؤال الأول وهو أن العقيدة ليست شيئا جديداً على الانسان طارئا عليه يمكن أن يلغيها من نفسه أو يعتزلها وينبوعنها وانما هى وجدت مع وجوده كانسان مدرك مستشعر لما يحدث له أو يصدر عنه أو يحيط به

وجدت هذه العقيدة كما قررنا فى ردنا عن السؤال الأول عنده يوم أن تحلل من غرائزه الحيوانية السفلى ويوم أن خرج من منطقة الحيوان الغير المدرك أو الواعى الى منطقة أخرى وهى منطقة استكشاف الروح فيه ، وتأثره بها وتنميتها فيه وتوفر عوامل الوعى والادراك فى نفسه

فالعقيدة اذا من مقومات انسانيته ، ومن بواعث نفرته من سلطة الغرائز الجبرية ومن تحلله شيئاً فشيئاً من صبغة الحيوان المسيطرة عليه ماديته والآخذة عليه كل سبيل من سبل التقدم والارتقاء فاذا رد علينا اخواننا اللادينيون وقالوا لنا ان عوامل الوعى والادراك لم يكن سبيلها استكشاف الروح واستشعار الانسان الأول بها وإنما كان سبيلها سنة النشوء والتطور والارتقاء فى عقل الانسان البدائى كان ردنا عليهم أن إيمان الانسان الأول بالروح وخلودها ، وأن وراء حياته هذه حياة أخرى كان من البواعث التى حملته على كثرة التفكير والتأمل ، وبالتالى على تكوين مادة لعقله استعان بها على اليقظة والنهوض والعمل على هتك ما كان يكتنفه من سجب الجهالة والظلام فلو لم توجد العقيدة بالروح التى يرجع اليها الفضل الاكبر فى استشعار الحواس وعمل العقل ، والتى يرجع إليها بعد ذلك فضل التفكير البشرى والتأمل العقلى ، ومحاولة البحث عن حقيقة الوجود

أقول لولم توجد هذه العقيدة لما تأتى للعقل أن يخرج من جهالته ولا أن يبدد ماتكاثف أمامه من ابهام وظلام ، ولكان اتخذ له طريقا آخر يستعين به على نضوجه وإدراكه ، وتطوره وارتقائه مع أننا لانعرف طريقاً آخر يمكن أن يستخدمه الإنسان فى هذا السبيل

ومع ذلك فنحن لانتصور انساناً يعيش البتة بغير عقيدة أياكانت هـــذه العقيدة ! فحتى الانسان الملحد أو الانسان اللادينى لا يمكن أن نبرئه البتة من العقيدة فإنه فى حقيقته مؤمن ولـكن فى وضع آخر وفى صورة أخرى .

وإذا نحن دققنا النظر وتعمقنا البحث فى منشأ الفلسفة والعلوم والفنون وكل فرع آخر من فروع المعرفة الانسانية وجدنا أن تقدمها وتطورها ونضوجها كان ذلك كله متأثراً فى كل عصر من العصور بالعقيدة الدينية أو بما يضاد هذه العقيدة الدينية من عقائد أخرى وبذلك يظهر لنا مما سبق ومن ردنا عن السؤالين الآنفين أن العقيدة خلقت مع خلق الإنسان ووجوده الوجود المدرك ، وأنها نبعت من طبيعته وكوامن نفسه ، وأنه من العسير عليه أن يستغنى عنها أو يحيا بدونها سواء رضى ذلك أم لم يرضه ، وسواء أدرك ذلك أم لم يدركه

وعلى ضوء هذا الاستطراد السريع والتقريرات المتقدمة نحب أن نجيب عن سؤالنا الذى صدرنا به هذا الفصل وهو (هل الدين لازم للبشر ؟)

ونحن بعد ذلك ، وبعد أن سردنا لك تاريخ تطور العقيدة الانسانية نقول نعم ! نقولها ونحن مطمئنون واثقون مؤيدون بوثائق منطقية وعقلية ! نقولها وماضى الإنسانية يثبت لنا ذلك ، وحاضرها يسجل عليها أنها تفزع الى الدين مستنقذة نفسها من حيرتها وضلالها وشقوتها . أما مستقبلها فينبئنا بأنها تسير بخطى سريعة نحو الدين آخذة بأصوله ومبادئه وذلك بما تصطنعه هى لنفسها من نظم وتسنه من قوانين يتحقق بها العدل ويرتفع بها الانسان وتهدف إلى ماترمى إليه جميع الأديان

لقد دللنا فى إجابتنا عن سؤالنا الأول على أن العقيدة ليست شيئا طارئاً

أو جديداً على الانسان ، وانما هى من صميم طبيعته وانسانيته كانت ميزة له عن الحيوان غير المدرك وحائلة بينه وبين سيطرة المادة وطغيانها عليه وتفردها به

ثم دللنا فى ردنا على السؤال الثانى أنه من العسير على الانسان أن يعيش بغير عقيدة لأنه فضلا عن أن العقيدة نبعت من نفسه وأنها ملازمة لطبيعته فإن ماركب فيه من عواطف وحواس وقلب وعقل كل ذلك يجبره على أن تكون له عقيدة حتى لاتتعطل وظيفة عواطفه وحواسه وقلبه وعقله وحتى يكون انساناً مهذباً متحضراً يخطو خطواته ويسير فى حياته على ضوء الحقائق ويوحى من هدى قلبه وعقله وبصيرته وعقيدته

وإلى هنا نعلم أن بعضا من المتفلسفين والعلماء الماديين سيهزون رءوسهم موافقين ولكنهم سيرفعونها دهشين متحدين سائلين قائلين وما شأن هـــذا بالدين . إنهم يقرون العقيدة ولزومها وضرورتها للانسان ولكن فى الواقعيات والماديات وحدها أما مادون ذلك فلا شأن لهم به ولا عقيدة لهم فيه ولكننا سنزيل من دهشتهم وسنلطف من حدتهم فنقول لهم إن الدين لاينكر عقيدتكم فى الواقعيات والماديات وإنما يقرها ويعمل لها باعتبارها جزءا ممادعا الى الاعتقاد به ، وباعتبار أن مادها اليه من أمور أخرى سماعية وغيبية تفيد هذه الواقعيات والماديات ولا تضرها لانها تسمو بها وتصلحها وتقتل جراثيم الفساد فيها

لقد قرر علماء النفس والتربية والاجتماع أن الانسان المثالى الذى يعمل لصالح الانسانية ولخير المجتمع هو الانسان المثقف المهذب ولكنهم لم يعترفوا بمن ظهرت عبقريته فى العلم أو الفن او الأدب أو أى فرع آخر من فروع المعرفة الانسانية بأنه انسان مهذب مثقف وانما اشترطوا فيه أن يكون ملما بكل طرف من اطراف المعرفة آخذا من كل شىء بحظ غير قليل يكيف به ماتخصص فيه من علم أو فن أو فلسفة أو أدب خشية جموحه وغطرسته وأنانيته وعدم استجابته لوحى الانسانية العام وتحويل عواطفه واحساساته نحو منحى خاص ووقوفها عنده لاتتذوق غيره ولا تؤمن إلا به

فإذا كان المتفلسفون والعلماء الماديون يؤمنون بأن العقيدة فى الماديات

وحدها تكفي فإنهم يخالفون الحقيقة ويبتعدون عن الطريق السوى بغرورهم وضلالهم وخيالاتهم وضيق مداركهم والتواء عقولهم فهم مقصرون فى حق أنفسهم لأنهم يرسمون لها دائرة محدودة لا يؤمن فيها الزلل ولا يعتصم معها من الضلال

نحن فى دعوتنا الى أن العقيدة فى الدين والعمل بأصوله ومبادئه الصافية الخالصة نحن فى دعوتنا الى أنها شيء لازم للانسان المثالى الممتاز لاغنى له عنها ولا إستقامة لحياته بدونها لا ننكر العقيدة فى الماديات والواقعيات ولكننا ننكر بقوة وبشدة الوقوف عند ذلك والاطمئنان له فكما انكر علماء النفس والتربية والاجتماع على العالم أو الفنان أو الفيلسوف أو الأديب الذى لم يصقل ذوقه ويكيف عقله ويهذب معارفه بأخذ بحظ يذكر من جميع المعارف التى لم يتخصص فيها

اذا كانوا انكروا عليه التثقيف والتهذيب فكذلك نحن ننكر أيضا على من يقصرون العقيدة على كل ماهو مادى محسوس مرئى للعين إدراكهم للحق والصواب والرشاد

ننكر عليهم سعة الصدر ، وصقل الأخلاق ، وميزة الاتزان . .

إن من طبيعة العقل البشرى القصور والعجز والتطور من النقص الى شيء من النضوج والكمال فمن يريد أن يحمل العقل معرفة أسرار الكون فانما يحمله محالا ، ويخرج به عن طبيعته ـ طبيعة العجز ـ الذى يتطلب نضوجا ، والنقص الذى يسعى الى شيء من الكمال

لقد أثبت تطور العلوم الحديثه أن فى الكون أشياء وأسرار كان من المحال على العقل أن يؤمن وجودها وحدوثها . ولكن لم يمنع ذلك أن تكون لها كائناتها ووجودها فمن يقصر بعد ذلك الايمان على العقل وحده فانما يبحث عن إيمان ناقص فقد أهم العناصر لنضوجه وكماله وهى : وحى البصيرة ، والهام الوعى الباطن وتأثير الاحساسات الادراكية

ومع ذلك فلن نكتفى بهذا وانما نحب أن نسأل هؤلاء السادة من الماديين الطبيعيين اللادينيين . مالذى ينشده الدين من كل هذه الأشياء التى يدعو الى الاعتقاد والايمان بها ؟ وما طبيعة هذه الاشياء ؟ هل هى خيرة أم شريرة ؟

وهل هى محببة للنفس الفردية مسعدة لمجموع الانسانية أم أنها كريهة الى النفس جالبة الشقاء والدمار على المجتمع الانسانى ؟

نعم نحب ان نسأل هؤلاء السادة : هل كان الدين فى جوهره وغاياته ، وفى البيئات التى نزل فيها عاملا من عوامل التقدم والتطور والرقى الانسانى أم أنه كان راجعا بالانسان القهقرى الى الوراء ! ولكننا نعتقد ان هؤلاء السادة سيسقط فى أيديهم وسيصمتون صمت القبور لأنهم سيجدون أمامهم دلائل مادية محسوسة ملموسة عندما يولون وجوههم شطر هذه البيئات التى أنزلت عليها كل الديانات السماوية فى عصورها المختلفة . سيجدون هـــذه البيئات تمرع فى جهل مطبق وتعيش فى ظلام قاتم وتكيف حياتها ، وتسن نظمها ، وتشرع قوانينها على ضوء من الأنانية والتعصب والتسلط ووجود سادة وعبيد ، وأغنياء وفقراء وأقوياء وضعفاء ، وعدل مزيف ، وحق لا للناس عامة ، وإنما للقوى وحده والظالم والمعتدى والمغير

نعم لو تعمق الباحث المحايد إلى أعماق هذه البيئات التى أنزلت عليها الديانات السماوية لا استرعى نظره ما كان يعتورها جميعاً من عوامل الانحطاط والفساد الذى كان ينخر فيها ويتهددها بالانقراض والفناء مما سنسهب فى التحدث عنه فى مكانه من هذا الكتاب

فماذا فعل الدين فى هذا الجو الموبوء . وفى هذه البيئات الفاسدة التى لو تركت وشأنها لقضت على نفسها وعلى نمو الانسانية ونظام العمران هل أقرها على نظمها ومبادئها وما تواضعت عليه من معيشة وما ألفته من حياة حتى يتجنب وقوفها ضده وصدها لمبادئه ومصادرتها لما يدعو اليه ؟ وهل كانت الرسل التى حملت أعباء تبليغ رسالة الدين . مبشرين ومنذرين . وهادين ومبشرين هل كان هؤلاء الرسل الا افراداً ممتازين فى انسانيتهم وفى اخلاقهم وفى ايثارهم للغير وفى كل ماهو حميد محبوب من صفات الوفاء والحق والعدل ، وصفاء الضمير ونفاذ البصيرة ورجاحة العقل ؟

ليجيبنا هؤلاء السادة اللادينيون عن ذلك فما نشك أن ذلك يخفى عليهم

لأنه مسطور فى التاريخ مقروء فيما نزلت به هذه الديانات.

إن قلمى ليضطرم وأنا أخط هذه الكلمات لأن العاصين للدين والكافرين به والجاحدين بفضائله يفسرون الدين فى ضوء ماكان يأخذه ويتمثل به اتباعه والقوامون عليه الذين أتوا بعد رسلهم بحقب ليست قصيرة والذين كانوا يلونونه على هواهم بعقولهم الرجعية. ويمثلونه بعيداً عما كان يدعو ويسعى إليه ويبغى تحقيقه. ومن هنا فهموه على غير حقيقته ورموه بالأباطيل والترهات وهو من كل ذلك براء.

إنى لأطلب من هؤلاء السادة أن لا يقفوا عند هؤلاء العلماء. وأن لا يأخذوا شيئاً عنهم، وأن لا يتمثلوا الدين فى ضوء أقوالهم وافعالهم لأنهم أساءوا إلى أديانهم إساءة لا تغتفر، ولأنهم لن يجدوا عندهم شيئا من فضائل الدين ومزاياه وحقيقته وجوهره وذلك لانحطاط مداركهم ومرض نفوسهم وتكالبهم على الطمع والجشع وتسخير عقولهم وتأويل أحكام دينهم لأغراض سياسية وذلك ارضاء لغرورهم أو لرؤسائهم . . . . ! وإنما عليهم إذا أرادوا نشدان الحق والعثور على الحقيقة أن يولوا أنظارهم شطر الأديان فى كتبها المنزلة، وان يدرسوا البيئات التى انزلت فيها هذه الديانات ليروا ماكان يكتنفها من عوامل الهدم والفسوق والبعد عن الصراط المستقيم ثم بعد ذلك يسائلون انفسهم ؟ هل حقق الدين للإنسانية نفعا وخيراً وصلاحا وهل رسم لها طريق التقدم والسمو والكمال أم لم يحقق أو يفعل شيئا من ذلك ؟ وهل لو نظرنا الى رسالات المفكرين والمصلحين والعبقريين من بنى البشر هل نجد الدين كان يقف فى طريقهم (ولا أقول علماء الدين) أم أنه كان يساعدهم ويأخذ بيدهم . بل كانوا يعتمدون عليه هم فى تكوين إدراكهم، ونمو مواهبهم، وتحقيق غاياتهم

لقد سبق أن قررنا بأن اكتشاف الروح فى الإنسان الأول كانت من العوامل التى حملته على الخروج من منطقة اللا إدراك الى منطقة الادراك ثم على التأمل والتفكير فى نظام الكون وحقيقة الوجود فترك تراثا من الفكر والأساطير والفلسفات مهما يقل فيه فإنه كان مادة صالحة ومفيدة لعمل العقل الإنسانى فى كل أطواره التى مرت به

وقياسا على ذلك نقرر والتاريخ معنا شاهد حق على أن ما بلغه الانسان من نضج وتقدم وتطور وعلى ان ما اصطنعه من صور التفكير وألوانه المختلفة وما أقامه من اختراعات وابتكارات وأشياء أخرى كان ذلك كله بسبب البذرات الأولى التي وضعها الدين فى دعوته الى الايمان بالله خالق الكون ، وصانع الأرض والسماء فوجد العقل بذلك طريقه فى البحث عن ماهية الروح ، وحقيقة الكون وأسرار الطبيعة وما وراءها وهيئت له بسبب ذلك السبل للتأمل والتفكير والبحث والتدقيق فى معرفة طبيعة الارض وحقيقة السماء فاخترع ما اخترع واكتشف ما أمكنه اكتشافه من أسرار وعلوم وقوانين و ما اصطلحه لكل ذلك من اصطلاحات

ومع ذلك لانود أن نكتفى بهذا لأننا نعلم أن بعضا من الناس سيتعرضون لنا قائلين ولذ كانت طبيعة الدين كما ذكرت . فكيف اذا حارب الدين العلم وكره الناس فيه وانكره عليهم وبغضهم فيه ؟ وجوابنا عليهم أننا لانعلم أن الدين فى ذاته ـ أى دين من الأديان المنزلة ـ انكر العلم المفيد للانسانية الآخذ بها نحو السمو والكمال لانعلم أن الدين أنكر شيئا من العلم أو عاداه أو أكره الناس على عدم الأخذ به لأن هذا مخالف لطبيعته ورسالاته وغاياته ـ فإذا كان هؤلاء يعنون العلماء الذين سموا أنفسهم بعلماء الدين فالدين ليس مسئولا عنهم وهو منهم براء

اننا نعلم أن الدين أنكر بعض العلوم وبغض الناس فيها وصرفهم عنها مثل علوم السحر المؤذية للانسان ؛ ومثل العلوم الأخرى المبلبلة لافكار الانسانية والمقلقة لراحتها وأمنها ولكنه كان ينظر من وراء ذلك مصلحة الانسان وخيره وسعادته وهنا يظهر لنا ما فى الدين من سمو وكمال وارتفاع عن الدنايا والموبقات وتحلل من الغريزة الوحشية والبغضاء والانتقام فأى عقل يهضم بعد ذلك أن الدين كان يقف أمام العلم يعثر خطواته ويسد طريقه

إن الحضارة الحديثة التي من آثارها وجود هذه العلوم والفنون وكثرتها وتشعبها تنكر بقوة وبشدة استعمال العلوم المبيدة للانسانية المفككة لرابطتها

المقوضة لأركانها

فهل هناك انسان بعد ذلك عنده ذرة من العقل والوجدان السليم يستطيع أن يقول إن الدين وقف فى طريق العلم وعوق من تطوره ونهضاته

ان الباحث المحايد النزيه لايسعه الا أن يشكر الله ويحمد له ما أفاء على الانسانية من خير بوجود الدين الذى نجاها من الضلال وجنبها العثرات وميزها تميزا ساميا رفيعا عن باقى المخلوقات

(١) قال جون استيوارت ميل فى رسالة له فى فائدة الديانة

« ان الديانات قد أفادت قديما فى تعليم الانسان مكارم الأخلاق ومحاسن العادات ، وكانت هى المرجع الوحيد الذى كان يرجع اليه فى التفرقة بين الحسن والقبيح والمباح والمحظور . ولكنها قيدت عقله بأحكامها وفروضها فأعجزته عن التفكير فى مضامينها والتخلص من عيوبها وعنده أن العقائد الانسانية كافية فى تهذيب الناس وقيادتهم بعد زوال العقائد التى تقوم على ماوراء الطبيعة لولا مزية لهذه العقائد لاتوجد فى العقائد الانسانية وهى تعزية النفس برحمة الله ودوام الحياة فى العالم الآخر ولا مانع عقلا ولا علماً فى أن يصح وعد الديانات بالحياة بعد الموت »

وقال الأستاذ الفيلسوف جمال الدين الافغانى فى كتابه (الرد على الدهريين) ترجمة الاستاذ الامام محمد عبده

« اكسب الدين عقول البشر ثلاث عقائد وأودع نفوسهم ثلاث خصال كل منها ركن لوجود الأمم وعماد لبناء هيئتها الاجتماعية وأساس محكم لمدنيتها وفى كل منها سائق يحث الشعوب والقبائل على التقدم لغايات الكمال والرقى إلى ذرى السعادة ومن كل واحدة وازع قوى يباعد النفوس عن الشر ويزعها عن مقارنة الفساد ويصدها عن مقاربة مايبيدها ويبددها (العقيدة الأولى) التصديق بأن الانسان ملك أرضى وهو أشرف المخلوقات (والثانية) يقين كل ذى دين بأن أمته أشرف الأمم وكل مخالف له فعلى ضلال وباطل (والثالثة)

---

(١) ترجمة الاستاذ العقاد

جزمه بأن الانسان انما ورد هذه الحياة الدنيا لاستحصال كمال يهيئه للعروج الى عالم أرفع وأوسع من هذا العالم الدنيوى والانتقال من دار ضيقة الساحات كثيرة المكروهات جديرة أن تسمى بيت الأحزان وقرار الآلام الى دار فسيحة الساحات خالية من المؤلمات لا تنقضى سعادتها ولا تنتهى مدتها

لا يغفل العاقل عما يتبع هذه العقائد الثلاث من الآثار الجليلة فى الاجتماع البشرى والمنافع الجمة فى المدنية الصحيحة ومايعود منها بالاصلاح على روابط الأمم وما لكل واحدة من الدخل فى بقاء النوع والميل بأفراده لأن يعيش كل منهم مع الآخر بالمسالمة والموادعة والأخذ بهم الأمم للصعود فى مراقى الكمال النفسى والعقلى

من البين أن لكل عقيدة لوازم وخواص لا تزايلها فما يلزم الاعتقاد بأن الانسان أشرف المخلوقات ترفع المعتقد بحكم الضرورة عن الخصال البهيمية واستنكافه عن ملابسة الصفات الحيوانية ولا ريب أنه كلما قوى الاعتقاد اشتد به النفور من مخالطة الحيوانات فى صفاتها وكلما اشتد هذا النفور سما بروحه الى العالم العقلى وكلما سما عقله أوفى على المدنية وأخذ منها بأوفر الحظوظ حتى قد ينتهى به الحال إلى أن يكون واحدا من أهل المدنية الفاضلة يحيا مع اخوانه الواصلين معه الى درجته على قواعد المحبة وأصول العدالة وتلك نهاية السعادة الانسانية فى الدنيا وغاية ما يسعى اليه العقلاء والحكماء فيها

فهذه العقيدة أعظم صارف للانسان عن مضارعة الحمر الوحشية فى معيشتها والثيران البرية فى حالتها ومضاربة البهائم السائمة والدواب الهاملة والهوام الراشمة لا تستطيع دفع مضرة ولا التقية من عادية ولا تهتدى طريقا لحفظ حياتها وتقضى أجلها فى دهشة الفزع ووحشية الانفراد

هذه العقيدة أشد زاجر لأبناء الانسان عن التقاطع المؤدى لافتراس بعضهم بعضا كما يقع بين الأسود الكاسرة والوحوش الضاربة والكلاب العاقرة وأشد مانع يدفع صاحبها عن مشاكلة الحيوانات فى خسائس الصفات وهذه العقيدة أحجى حاد للفكر فى حركاته وانجح داع للعقل فى استعمال قوته وأقوى

فاعل فى تهذيب النفوس وتطهيرها من الرذائل

ان شئت فانظر بنظر العقل إلى قوم لا يعتقدون هذا الاعتقاد بل يظنون أن الانسان حيوان كسائر الحيوانات ثم تبصر ماذا يصدر عنهم من ضروب الدنايا والرذائل والى أى حد تصل بهم الشرور وبأى منزلة من الدناءة تكون نفوسهم وكيف أن السقوط الى الحيوانية يقف بعقولهم عن الحركات الفكرية

ومن خواص يقين الأمة بأنها أشرف الأمم وجميع من يخالفها على الباطل أن ينهض آحادها لمكاثرة الأمم فى مفاخرها ومساماتها فى مجدها ومسابقتها فى شرائف الأمور وفضائل الصفات ، وأن تتفق جميعها على الرغبة فى فوت جميع الأمم والتقدم عليها فى المزايا الانسانية عقلية كانت أو نفسية ومعاشية كانت أو معادية وتأبى نفس كل واحد عن اعطاء الدنية والرضى بالضيم لنفسه أو لأحد من بنى أمته ولا يسره أن يرى شيئا من العزة أو مقاما من الشرف لقوم من الأقوام حتى يطلب لأمته أفضله وأعلاه ذلك انه بهذا الاعتقاد يرى أبناء قومه أليق وأجدر بكل مايعد شرفا انسانيا

فان جازت صروف الدهر على قومه فأضرعتهم أو ثلمت مجدهم او سلبتهم مزية من مزايا الفضل لم تستقر له راحة ولم تنشأ له حمية ولم يسكن له جيشان فهو يمضى حياته فى علاج ما ألم بقومه حتى يأسوه أو يموت فى أساه

فهذه العقيدة أقوى دافع للأمم الى التسابق لغايات المدنية وأمضى الاسباب بها إلى طلب العلوم والتوسع فى الفنون والابداع فى الصنائع وانها لأبلغ فى سوق الأمم الى منازل العلاء ومقام الشرف من غالب قاسر ومستبد قاهر عادل وان أردت فالمح بعقلك حال قوم فقدوا هذا اليقين ماذا تجد من فتور فى حركات آحادهم نحو المعالى وماذا ترى من قصور فى هممهم عن درك الفضائل وماذ ينزل بقواهم من الضعف وماذا يحل بديارهم من الفقر والمسكنة والى أية هوة يسقطون من الذلة والهوان خصوصا اذا بغى عليهم لجهل فظنوا أنهم أدنى من سائر الملل كطائفة (الدهير) و (مانك)

ومن مقتضيات الجزم بأن الانسان ماورد هذا العالم الا ليتزود منه كمالا

يعرج به الى عالم أرفع ويرتحل به الى دار أوسع وجناب أمرع أن من أشربت هـــذه العقيدة قلبه ينبعث بحكمها وينساق بحاديها لاضاءة عقله بالعلوم الحقة والمعارف الصافية خشية أن يهبط به الجهل الى نقص يحول دون مطلبه ثم ينصرف همه لابراز ما أودع فيه من القوة السامية والمدارك العقلية والحواس الجليلة باستجالها فيما خلقت له فينجلى كماله من عالم الكون الى عالم الظهور ويرتقى من درجة القوة إلى مكانة الفعل فهو ينفق ساعاته فى تهذيب نفسه وتطهيرها من دنس الرذائل ولا يناله التقصير فى تقويم ملكاته النفسية وينزع لكسب المال من الوجوه المشروعه متنكبا عن طرق الخيانه ووسائل الكذب والحيلة معرضا عن ابواب الرشوة مترفعا عن الملق الكلبى والخداع الثعلبى ثم ينفق ماكسب فى الوجه الذى يليق وعلى الوجه الذى ينبغى وبالقدر الذى ينبغى لا يأتى فيه باطلا ولا يغفل حقا عاماً أو خاصا

فهذه العقيدة أحكم مرشد وأهدى قائد للانسان الى المدنية الثابتة المؤسسة على المعارف الحقة والأخلاق الفاضلة وهذا الاعتقاد أشد ركن لقوام الهيئة الاجتماعية التى لاعمادلها الا معرفة كل واحد حقوقه وحقوق غيره عليه والقيام على صراط العدل المستقيم هذا الاعتقاد أنجح الذرائع لتوثيق الروابط بين الأمم اذ لاعقد لها الا مراعاة الصدق والخضوع لسلطان العدل فى الوقوف عند حدود المعاملات هذا الاعتقاد نفحة من روح الرحمه الأزلية تهب على القلوب ببرد الهدون والمسالمه فان المسالمة ثمرة العدل والمحبة والعدل والمحبة زهر الاخلاق والسجايا الحسنة وهى غراس تلك العقيدة التى تحيد بصاحبها عن مضارب الشرور وتنجيه عن متائه الشقاء وتعاسة الحد وترفعه الى غرف المدنية الفاضلة وتجلسه على كرسى السعاده

وقد يسهل عليك ان تتخيل جيلا من الناس حرم هذه العقيدة فكم يبدو لك فيه من شقاق وكذب ونفاق وحيل وخداع ورشوة واختلاس وكم يغشى نظرك من مشاهد الحرص والشره والغدر والاغتيال وهضم الحقوق والجدال والجلاد وكم تحس فيه من جفاء للعلم وعشوة عن نور المعرفه » انتهى

وهكذا وجدتني مضطرا لأن أنقل لك هذا الفصل بأجمعه لأنه متصل بعضه ببعض اتصالا وثيقا ولأنه صادر من مفكر شرقي عظيم يعتبر الباعث الأول لنهضتنا الحديثة والذي تتلمذ على يديه زعماء الفكر والسياسة والدين في مصر والشرق جميعا

واذا كان لنا أن نكتب بعد ذلك شيئا عن مزايا الدين وضرورته للبشر وان عقيدته هي أفضل العقائد وأقواها وأسماها بعد أن قررنا فيما سبق من الكتاب بأدلة مادية قاطعة بأنه ليس للانسان مفر من عقيدة في نفسه لأنها من طبيعة تكوينه ولأنها من لوازم تطوره ووجوده كانسان متحضر في هذه الحياة

إذا كان لنا أن نكتب بعد كل ماقدمناه من دلائل واثباتات واستشهادات أقول إذا كان لنا أن نكتب شيئا عن عقيدة الدين بعد هذا كله فإننا سنتكلم عن موجد هذه العقيدة والداعي اليها والآمر بها بواسطة رسله وكتبه المنزلة من السماء

سنتكلم على حقيقة الوجود ، أو على حقيقة الإله خالق الكون وباسط الأرض ورافع السماء ومنظم العمران بعيني خبير قدير

وكما قلنا نحن سابقا من أننا لم نقم بهذا البحث حبا للترف العقلي والنزهة الفكرية وكثرة المناقشة والجدل فيما لاينفع ولا يفيد الانسانية في حالتها الراهنة وفيما تستقبله من الأيام وانما نحن في دراستنا هذه لانقصد الا الخير والفائدة الملموسة والمحسوسة للانسانية في حاضرها ومستقبلها فمن أجل ذلك لن نناقش علماء «الميتافيزيقيا» في آرائهم الكثيرة المتناقضة وفي تفسيراتهم المتباينة لمختلفة لحقيقة الوجود وماهية الكون ولكننا نكتفي رغم اختلافهم في ذلك باعترافهم جميعا بأن وراء الطبيعة قوة قاهرة قادرة تفرع منها الوجود وتسبب عنها حدوث الكون فاذا جاءت الاديان لترشدنا وتدلل لنا على أن هذه القوى القاهرة القادرة هي الإله خالق الكون ورب الجميع الذي لا أول له ولا آخر ولا بداية له ولانهاية والذي بيده الملك ، وبيده الامر والنهي والذي سيحاسب الانسان على ماقدمت يداه واكتسبه من خير أو شر ، فمن عمل صالحا فلنفسه

ومن أساء فعليها وما ربك بظلام للعبيد »

اذا جاءت الديانات لتدعونا بأن نؤمن بهذا الإله بعد أن أظهر العقل عجزه عن معرفته وتصويره . واكتشاف حقيقته وبعد أن وجدنا فليسوفا عبقريا مثل (عما نوئيل كانت) المفكر الالمانى الذى سادت فلسفته أوربا فى القرن التاسع عشر والتى مازالت فلسفته تؤثر فى الفكر البشرى حتى الان يقرر فى قوة ومن غير تحفظ « بأن لاسبيل للعقل فى معرفة حقيقة الله أو حقيقة الروح لأنه لاتتوفر فيه القدرة على ذلك . ولانه يعجز عن أن يصل الى شىء أضخم وأعظم منه ولان مجاله لايتأتى الا فى الأشياء المادية الملموسة المحسوسة والله منزه عن المادة ، وعن أن يكون شيئا ملموسا محسوساً »

فالعقل هنا يثبت تقصيره وعجزه أمام القوى الازلية غير المشخصة أو المستحدثة أو المدينة فى وجودها لعلة من العلل أو لسبب من الأسباب ولكن العقل اذا كان لا يملك ادراك الذات الإلهية فليس له من سبب وجيه لانكارها وعلى ذلك فإنه يكون من الجحود لأنفسنا أن لا نؤمن بوجود الاله

وإن الباحث إذا رجع بنظره وفكره إلى الكيفية التى آمن بها الانسان الأول ـ وان كنا نقرر هنا بأن ايمانه لم يكن صحيحا ـ الا أن ذلك لايمنعنا من أن نعرف الأدوات التى استعملها فى البحث عن ماهية الكون وحقيقة الاله وأول شىء يبرز لنا من ذلك أن العقل لم يستأثر وحده بالبحث ولم يكن وحده هو الأداة التى حملت الانسان على الايمان بالروح بل كان القلب وكانت الاحساسات هى التى تحملت النصيب الأوفر فى ذلك .

لقد قررنا نحن فيما مضى بأن ما اكتسبه العقل من انارة ونضوج كان بسبب الاحساسات الانسانية التى استشفت للعقل المادة التى يتدبر فيها ويتحكم ويحكم

وغاية مانقوله فى هذا الموضوع هو أن العقل الذى طبيعته القصور والعجز دائما فلا سبيل له الى الكمال أبد الآبدين من العبث أن نحكمه فى الكمال المطلق ليلم به ويحكم عليه . وانما نحكمه فيما يرتاح اليه القلب وترتاح اليه الاحساسات ، نحكمه فى الفوائد الملموسة التى يجنيها المجتمع فى ايمانه بالله . أو فى الشرور التى

يتغمس فيها بالكفر به

قال الفيلسوف الانجليزى هكسلى فى حقيقة الإله :

(هناك طريقة إلى الحقيقة الإلهية من داخل النفس وطريقة اليها من داخل العالم وجواهره واعراضه . ومشكوك فيه أن تغنينا واحدة من الطريقتين عن الأخرى كل الغنى فأما إذا اتفقتا معا فذلك هو النهج السديد)

ويقول العقاد فى صفحة (٢٩٣) من كتابه (الله)

(نحن قد جهلنا أحكام البساطة وصفاتها فى المادة المحسوسة قرونا بعد قرون ولا نزال نعلم أننا واهمون فيما نتصف به من الحركة والسكون . فمن أين لنا أن ندرك أحكام البساطة الالهية قياسا على وصف لا تحيط به العقول من أين لنا ان ارادة الله من قبيل ارادتنا . وأن علم الله من قبيل علمنا وكيف يكون الوجود إن لم يكن وجوداً يفعل ويخالف العدم ؟ وكيف يخالف العدم اذا كان سلبا لا أثر له على سبيل الثبوت هنا نعلم أن الدين لم يكن أصدق عقيدة وكفى بل كان كذلك أصدق فلسفة حين علمنا ان الله جل وعلا (ليس كمثله شيء)

فكل ما نعلمه أنه جل وعلا (كمال مطلق) وان العقل المحدود لا يحيط بالكمال المطلق الذى ليست له حدود . وليس لهذا العقل أن يقول للكمال المطلق كيف يكون وكيف يفعل وكيف يريد .

ويفضى بنا الكلام فى طاقة العقل الى نتيجة رابعة وهى الصلة بين العقل والايمان فكيف نؤمن اذاً اذا كان العقل الانسانى قاصراً عن ادراك الذات الالهية وكيف تأتى الصلة بين الكمال المطلق وبين الانسان

وقد نمهد للجواب على هذا السؤال بسؤال آخر يرد البحث الى نصابه فنسأل : أيراد بالعقل اذا أن يكف عن الايمان حتى يكون عقلا كاملا مطلق الكمال أم يراد بالعقل أن يؤمن بالله دون مرتبه الكمال ؟

لا هذا ولا ذاك مما يقع فى حسبان فالكائن الذى يستحق الايمان به هو الكائن الذى يتصف بالكمال المطلق فى جميع الصفات وغير معقول أن يكون سبب الايمان هو السبب المبطل للإيمان . وغير معقول أن يستحيل الايمان مع وجود الاله الذى يتصف بأكمل الصفات فالمخرج الوحيد من هذا التناقض أن الصلة بين

الخالق وخلقه لا تتوقف على العقل وحده : وأى عجب فى ذلك إن الانسان كله لفى الوجود وليس العقل وحده هو قوام وجود الانسان . فلماذا تنقطع الصلة بين الخلق والخالق إذا حسرت العقول دون ذلك المقام أفمعنى هذا أن العقل الانسانى لا عمل له فى مسألة الايمان ؟ كلا بل له عمل كبير ولكنه ليس بالعمل الوحيد وفرق بين أن يعرف العقل حدوده وبين أن يبطل عمله فان العقل ليستطيع التفرقة بين عقيدة الشرك وعقيدة التوحيد ويستطيع التفرقة بين أدلة الايمان وأدلة التعطيل ويستطيع التفرقة بين ضمير مؤمن وضمير معطل من الايمان . ويستطيع أن يبلغ غاية حدوده ثم لا ينكر حدودها لانه وراء تلك الحدود يستطيع أن يسأل نفسه : أيمكن أن يمتنع على الايمان بالله لا لشىء الا لأنه متصف بأكمل الصفات التى يتعلق بها إيمان المؤمنين فان لم يكن ذلك ممكنا فليعترف (بالوعى الدينى) لأنه ضرورة لا محيص عنها ولأنه واقع ملازم للانسان فى محاولاته الأولى ، ولن يزال ملازماً له فى مقبل عصوره أبد الآبدين) انتهى

ومع ذلك فاننا لا نحب أن نترك هذا البحث دون أن نجد للعقل ونجد المنطق مجالا فى معرفة آثار الذات الالهية وفى معرفة ما تجنيه الانسانية من الايمان بها من خير أو شر : نعم هنا مجال العقل ، وهنا مقارعة المنطق وهو هل الايمان بالله وإطاعة أوامره والابتعاد عن نواهيه خير وإصلاح وتهذيب للانسانية أم جرم وفساد وشر ووبال عليها :

ان النفس الانسانية أمارة بالسوء ، وإن الغريزة البشرية ركب فيها من عوامل الأثرة والوحشية والاعتداء مالو تركت وشأنها لقضت على الانسانية والعمران شر قضاء فلو لم يستشعر الانسان ويؤمن بأن هناك قوة قادرة عليمة بصيرة تقف له بالمرصاد وتسجل عليه ما يكتسبه من الأعمال وستحاسبه على ما قدمت يداه من خير أو شر حساباً عسيراً فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره

اذا لم يؤمن الانسان بذلك لما كان هناك فرق بينه وبين الذئاب المتوحشة والنمور الكاسرة ، وذلك فضلا عما يجده القلب فى ايمانه بالله وما تجده الاحساسات البشرية من معين للتغذية ومن مجال للرفعة والتسامى والايثار والحب

إن التعاليم والمبادىء التي نزلت بها الديانات من قبل الله من تكرار القول التحدث عن نفعها وخيرها للإنسانية لأنها من البدائه التي لا يتطاول إلى انكارها إنسان كائنا من كان والتي يقف أمامها العقل البشري منحنيا في تقديس وإكبار وإجلال .

يقول أحد الفلاسفة الغربيين (لو لم يكن للبشر إله لكان من الخير لهم أن يصطنعوا لأنفسهم إلها)

ويقول الأستاذ جمال الدين الأفغاني في كتابه سالف الذكر « إن الإيمان بأن للعالم صانعاً عالما بمضمرات القلوب ومطويات الأنفس سامي القدرة واسع الحول والقوة مع الإعتقاد بأنه قدر للخير والشر جزاء بوفاة مستحقيه في حياة بعد هذه الحياة . وفي الحق ان هاتين العقيدتين وازعان قويان يكبحان النفس عن الشهوات ويمنعانها عن العدوان ظاهره وخفيه وحاسمان صارمان يمحوان أثر الغدر ويستأصلان حتى مادة التدليس وهما أفضل وسيلة لاحقاق الحق والتوقيف عند الحد وهما مجلبة الأمن ومتنسم الراحة وبدون هذين الاعتقادين لا تقرر هيئة للإجتماع الإنساني ولا تلبس المدنية سربال الحياة ولا يستقيم نظام المعاملات ولا تصفو صلات البشر من شائبات الغل وكدورات الغش

فلو خويت القلوب من هاتين العقيدتين لسكنتها شياطين الرذائل وسدت عليها طرق الفضائل ومن أين لمنكر الجزاء أن يكف نفسه عن خيانة أو يترفع بها عن كذب وغدر وتملق ونفاق وقد تقرر أن العلة الغائية لأعمال الإنسان إنما هي نفسه كما سبق فإن لم يؤمن بثواب وعقاب وحساب وعتاب في يوم بعد يومه فما الذي يمنعه عن ذمائم الفعال خصوصا إذا تمكن من إخفاء عمله وآمن من سوء عاقبته في الدنيا أو رأى منفعته الحاضرة في ركوب طريق الرذيلة والعدول عن سنن الفضيلة وأي حامل يحمله على المعاونة والمرادفة والرحمة والمروءة وعلو الهمة وما يشبه ذلك من الأخلاق التي لا غنى للهيئة الاجتماعية عنها (ولئن وجد في أحد الجاحدين شيء من مكارم الأخلاق بمقتضى الغريزة لكان عرضة للفساد أو كان أبتر ناقصا لفقد ما يمده من سائر صفات الكمال)

وقد تبين أن أول تعاليم الدهريين ابطال هذين الاعتقادين (الاعتقاد بالله والاعتقاد بالحياة الأبدية) وهما أساس كل دين وآخر تعاليمهم الاباحة

والاشتراك فهؤلاء القوم هم الساعون فى نسف بناء الانسانية وتذريته فى ذيول السافيات يطلبون ضعضعة أركان المدنية وفساد الأخلاق البشرية ويقوضون بذلك ما رفعه العلم وشادته المعرفة يهلكون الأمم باطفاء حرارة الغيرة واخماد ريح الحمية . هؤلاء جراثيم اللؤم والخيانة وأرومات الرذالة والدناءة واحلاس الخسة والنذالة وأعلام الكذب والافتراء ودعاة الحيوانية العجماء محبتهم كيد وصحبتهم صيد وتوددهم مكر ومواصلتهم غدر وصداقتهم خيانة ودعواهم للإنسانية خيالة ودعوتهم للعلوم شرك ومكيدة يخونون الأمانة ولا يحفظون السر ويبيعون الصق الناس بهم بأوفى مشتهياتهم عبيد البطون وأسراء الشهوات لا يستنكفون من الدنية اذا اعقبتها عطية ولا يخجلون من الفضيحة اذا اتبعتها رضيخة لا علم عندهم بالوفاء ولا احساس لهم بالعار ولم يبلغهم عن شرف النفس خبر مخبر ولا وصل اليهم عن الهمة عبارة معبر أو تفسير مفسر الابن فيهم لا يأمن أباه والبنت لا أمان لها من كليهما . نعم أى حد تقف دونه حركات طبع الطبعيين ،،

الى أن قال « فتبين مما قررناه أن الدين وأن انحطت درجته بين الاديان ووهى أساسه فهو أفضل من طريقة الدهريين وأمس بالمدنية ونظام الجمعية الانسانية وأجل أثراً فى عقد روابط المعاملات بل فى كل شأن يفيد المجتمع الانسانى وفى كل ترق بشرى الى أية درجة من درجات السعادة فى هذه الحياة وختم هذا الفصل بقوله « فلم تبق ريبة أن الدين هو السبب الفرد لسعادة الانسان فلو قام الدين على قواعد الأمر الالهى الحق ولم يخالطه شىء من أباطيل من يزعمونه ولا يعرفونه فلا ريب أنه يكون سببا فى السعادة التامة والنعيم الكامل ويذهب بمعتقديه فى جواد الكمال الصورى والمعنوى . ويصعد بهم الى ذروة الفضل الظاهرى والباطنى ويرفع أعلام المدنية لطلابها بل يفيض على المتمدنين من ديم الكمال الفعلى والنفسى ما يظفرهم بسعادة الدارين والله يهدى من يشاء الى صراط مستقيم »

ويقول (أجوست سباتييه) فى كتابه فلسفة الدين (لماذا أنا متدين؟ انى لم أحرك شفتى بهذا السؤال مرة إلا وأراني مشوقاً للاجابة عنه بهذا الجواب ؛؟ وهو

أنا متدين لأنى لا أستطيع غير ذلك فالتدين لازم معنوى من لوازم ذاتى يقولون ذلك أثر من آثار الوراثة أو التربية أو المزاج فأقول لهم قد اعترضت على نفسى كثيراً بهذا الاعتراض نفسه ولكنى وجدته يقهقر المسألة ولا يحلها وأن ضرورة التدين أشاهدها بأكثر قوة فى الحياة الاجتماعية البشرية. فهى ليست أقل تشبثاً منى بأهداب الدين) إلى أن قال :

(وإذاً فالدين باق وغير قابل للزوال وهو فضلا عن عدم نضوب ينبوعه بتمادى الزمن نرى ذلك الينبوع يتزايد اتساعاً وعمقا تحت المؤثر المزدوج من الفكر الفلسفى والتجاريب الحيوية المؤلمة)

ويقول الفيلسوف (أرنست رينان) فى كتابه تاريخ الأديان « من الممكن أن يضمحل ويتلاشى كل شىء نحبه وكل شىء نعده من ملاذ الحياة ونعيمها . ومن الممكن أن تبطل حرية استعمال القوة العقلية والصناعية ولكن يستحيل أن يمحى التدين أو يتلاشى . بل سيبقى أبد الآبدين حجة ناطقة على بطلان المذهب المادى الذى يود أن يحصر الفكر الإنسانى فى المضائق الدنيئة للحياة الأرضية »

ويقول الدوس هكسلى : « إن الحضارة الأوربية قامت على التفوق الذهنى وحده وخلقت نهضة صناعية لم تحقق للإنسانية إلا القوى المادية والترف ولكنها أهملت تربية عواطفه واخلاقه وفضائله الروحية »

ويقول الفيلسوف الفرنسى (شارل) فى كتابه الوحى الجديد (لما فقد الناس التصديق بوجود الروح صارت منابع الأخلاق مهددة بالنضوب وأحست الإنسانية من نفسها بأنها قد دخلت دور الفتن والإنحلال الذى يعقبه عادة التلاشى والفناء)

وقال الأستاذ أحمد أمين بك فى مقال له فى مجلة الكتاب : اجتمع جماعة من أشهر رجال العلم يمثلون علم الفلك والكيمياء . والإقتصاد والتاريخ والأدب والفلسفة والدين ووضعوا تقريراً جاء فيه :

« الديمقراطية الصحيحة والثقافة الحقة يجب أن لا تعتمد على أن الإنسان جزء من الطبيعة فقط بل هو أيضا كائن روحى . وأن الحياة الروحية لا يمكن

أن تفسر بالقوانين الطبيعية التى يشرحها علماء الطبيعة . وأن الروح الانسانى
مستقل عن الجسم وبيئته . وأن اتصال الروح بالمنبع الأبدى مسألة أساسية فى
فهم الروح الانسانى وأن انكار الطبيعيين لعلاقة الانسان بالروح الأعلى التى
تسيطر على العالم أجمع حرمه من قوة الخالق وأبعده عن الصراط المستقيم .

والخلاصة التى يمكن أن نخرج بها من هذا الفصل هى أن الدين لازم للبشر
لزوم الماء والهواء للإنسان والحيوان والنبات ضرورى لرقى الانسانية ضرورة
لا محيص منها ولا محيد عنها . وأن الباحث لا يملك نفسه من أن يتنبأ بأن
الانسانية فى تطورها هذا القوى العنيف سينتهى بها المطاف الى أن ترتمى فى
أحضان الدين ، وأن تكيف نفسها به ، وأن تستمد حياتها بوحى من هديه
فعلى الدين بعد ذلك أن يكون مرنا صافيا خالصا مما ألم به من الشوائب والاباطيل
والترهات التى ألمت به فى عصوره الماضية وهو منها براء .

ولقد أخذنا على أنفسنا عهداً بأن نقوم بهذا العمل الضخم الجبار فنستظهر
ديننا الاسلامى ونقدمه للانسانية نظيفاً مما علق به لترى فيه بغيتها وهداها
وتستنقذ نفسها به مما هى فيه من حيرة وضلال وظلوع عن الطريق المستقيم .

إن الاسلام هو آخر الاديان السماوية وأقواها وأصلحها وأعظمها مرونة
وها نحن أولاء نقدمه لا للمسلمين فقط وإنما للانسانية جمعاء لترى فيه رشادها
وتستمد منه سعادتها فى حاضرها ومايستقبلها بعد ذلك من عظمة وتفوق وامتياز